[٣١] الوافدة [١]

حدثني من ليس عندي بمتهم :

كثر القيل والقال عنها عندما نزلت بلدتنا واستنعمت مرقدها عندنا ، ونفقت بضاعتها بين ظهرانينا .

فهي تداوي المرضى بالحجب والتمائم وتقارب بين القلوب النافرة بالقراءة والبخور ، وتسعى لجمع الحبيب بالحبيب بالعطور والنذور ، إنها امرأة من البادية في الثلاثينات من عمرها قصيرة القامة نحيفة الجسم سمراء اللون ، كالحة الوجه ، غائرة العينين ، تقرأ في وجهها أمارات الخبث ، ممزوجة بالمكر والدهاء ، لها تجربة في الحياة وخبرة في طبائع الناس .

اتخذت من عقول الناس مزرعة ، ومن دينهم وسيلة ، ومن سذاجتهم سبباً للرزق ، ورغم كل ذلك فاسمها الشيخة ، لقد آمن الناس بكلامها إيمانهم بالقرآن ، وصدقوها تصديقهم للرسول ﷺ ، وتهيبوها كما تهيبون الله ، تقول فيصدقون ، وتأمر فيتبعون ، وتنهى فلا يعصون ... ! .

زعمت أنها ولية من أولياء الله فلم ينكروا كرامتها ، وادعت أن لها أخوة من الجن فلم يجحدوا أخوتها ، وقالت : أنها تطلع على الغيب فصدقوها وسبحوا بحمدها ... ! .

قابلت غباء الناس بفطنتها ، وجهلهم بخبرتها ، وبساطتهم بمكرها ، لقد أقبلت عليها النساء من جميع أطراف البلدة ، وكل واحدة ولها مصب وعندها

---

(١) قصص هادفة من واقع الحياة لمحمود درويش (باختصار) .

مشكلة ، هذه تخلف عنها حظها ، وتلك نبا بها زوجها ، وثالثة جفاها خطيبها وأخرى قاطعها حبيبها ، وتلك تشكو ضرتها أو تحسد جارتها ، وغيرها غار لبنها ، أو تشكو عدم الحمل ، أو تضيق بكثرة الولد ،ومنهن من تسأل عن ولدها المسافر ، أو تطلب لزوجها الرزق ، أو تستشفى لابنها المريض ، وبعضهن يقتبس البركات ويطمحن إلى أن يصبحن شيخات، وأما اللواتى طالبات المال ، الطامعات فى الثراء فما أكثرهن ، وقد علمن أن هذه الوافدة تحول المعادن إلى ذهب ، وتكشف الكنوز وتعلم ما فى الخزائن ... .

ومن عجيب الطباع أن هؤلاء النسوة يتطوعن لنشر شأن الوافدة دون مقابل أو تكليف ، فلا تلبث الواحدة منهن بعد أن تغادر مقر الوافدة حتى تتحول إلى داعية لها ، ساعية لتعريفها للنساء ، وما أكثر ما تتزيَّد النساء فى الحديث ، وما أكثر ما يختلقن الأخبار ، فما أسرع ما انتشر خبر الوافدة فى القرية وفى القرى المجاورة ، وما أشد ما ذاع صيتها ، وبعد صوتها فى سائر الوادي ... .

والناس أصناف فى ذلك ويختلفون باختلاف الرغائب والحاجات ، فقد أقبل الناس ينشدون المحبة لديها ، وأخرون يبتغون الثروة ، وغيرهم ينشدون الغيبيات وقضاء الحاجات ، ولذلك راحت الوافدة تغالى بالقيمة وتضن بالمقابلة ، وتقبل بعض القضايا ، وترفض بعضها ، إما مغالاة بالثمن وتشويقاً لصاحب الحاجة ، وإما تعللاً بكثرة المشاغل ... .

يالغباوة ابن آدم ، كيف يتعلق بالأوهام ويهيم وراء المستحيلات ويصدق مالا يصدق ، ويتعلق بما ليس بكائن .. .

● أراك يا « أبا كمال » مأخوذاً بهذه الوافدة حتى أنزلتها منك منزلة الأولياء ؟ .

● وما هو وجه الغرابة يا « أبا حسين » ؟؟ .

● وجه الغرابة أن تتمكن امرأة من العبث بعقول الرجال يا « أبا كمال » .

● تسمى كراماتها عبثاً ؟ اتق الله يا « أبا حسين » .. .

● إذن ما تسمى تصرفاتها وشعوذاتها يا « أبا كمال » .

● وزعم أبو كمال أنه قدم للوافدة قطعاً من النحاس ، وأنها قرأت وعزمت ، وقدمت بين يديها فتحول النحاس الصدىء إلى ذهب خالص ، وشاعت رواية أبو كمال فى القرية وانتقلت منها إلى القرى المجاورة ، فأقبل الناس أفراداً وأزواجاً كل يقدم للوافدة ما لديه من ثمين المعادن لتحويلها إلى ذهب ، وعندما رأت الوافدة الإقبال على هذا المطلب راحت تشترط على زبائنها وتقسو فى الشروط ...

فهى لا تقبل من المعادن سوى الفضة لتحويلها إلى ذهب أو الذهب لتنميته وتكثيره .

ولابد لصاحب الحاجة أن يقدم بين يديه ثلاثة ديوك سود كاملة السواد أو بيض كاملة البياض ، أو جدى أو خروف خاليين من القرون ، لا أعرج بيّن العرج ولا أجزع ظاهر الجزع ، ليكون ذلك قرباناً لله ، ووليمة إلى أخواتها من أبناء الملك الأحمر من ملوك الجان ... وأن لا يتصرف خلال مدة لا تقل عن الشهر بما يؤذى الجان ، لأن ذلك يفسد العمل ، ويجعل الجان تثأر منه ومن أسرته وهذا الشرط الأخير كان صمام الأمان بالنسبة للوافدة ، وبه تتمكن من التنصل من تعهداتها كلما لزم الأمر ورغم هذه الشروط القاسية فقد ورد عليها من الذهب والفضة ما يغنيها مدى الحياة ... .

وعندما انقضت المدة وحان الأجل المضروب أقبل الناس يتفقدون الذهب

الابريز ، وما كان أشد خيبتهم عندما زمجرت الوافدة فى وجوههم زاعمة أنهم خالفوا الأوامر ، وارتكبوا الإثم تجاه إخوتها من الجن ، وأنها بذلت من جهدها ومن جاهها حتى صرفت أخوتها عن معاقبتهم ، إذ كانوا عازمين على « لطشهم » والانتقام منهم ، وكان الناس ينصرفون وتكاد تنخلع قلوبهم فرقاً من الجان ومن « لطشها وبطشها » بعد أن يشكروا الوافدة لما أسدت إليهم من معروف ، ودفعت عنهم من « متلوف » ويتكرر المشهد ، ويتكرر الناس ساهين سادرين يرون العبرة فى غيرهم ولا يعتبرون ... .

ومكّنت الوافدة لنفسها المقام ، ومكن الناس لها الإقامة وتفننت بشتى أساليب الشعوذة والخديعة ، وقد اتخذت لائحة أشبه بلائحة الأطباء على أبواب العيادات ، فجعلت سعر المحبة غير سعر الخطبة وسعر الزواج غير سعر الطلاق ، وللاتصال بالحلال سعر والاتصال بالحرام سعر ... .

ولقد كان للوافدة مشاريع كثيرة ذات أهداف متعددة منها : ابتذاذ المال ، وتوطيد المكانة والمقام ، ومنها أمور فيها كثير من الإثم والفسوق وكثير من اللذة والمتعة ، وكانت تعلم أن هذا الأخير أصعب مراماً وأشق منالاً من السابقين ، إذ أنها ليست على جانب من الجمال ، وليست لها حظوة لدى الشباب ، لذا فقد زعمت أن لها أختاً من الجان تسمى مليكة ، وهى على جانب من الجمال وأنها من الرهط المؤمن من الجن ، فهى بنت الملك الأبيض من ملوك الجان ، وما زالت تضفى عليها من الصفات الحسنة والخلق الكريم ، وما زالت تجرى على يديها الكثير من الخدمات لطالبات تلك الخدمات ، وتعلن أنها تعطف على بنات الإنس ، وتحت مساعدتهن ، وقضاء حوائجهن دونما طلب منفعة وابتغاء غاية من غايات بنات الإنس ، حتى عرفت جميع النسوة خبر هذه

الأخت ورحن يتحدثن عن أخلاقها الكريمة ، وخلالها الحسنة وأصبح ذكر هذه الأخت فى كل بيت وعلى كل لسان ، وقد أحبها النساء فضلاً عن الرجال ... .

وكان فى بيت « أبو كمال » مضيف الوافدة شاب وسيم الطالعة حدث السن ، يتسم بالأناقة ويتصف بجودة الحديث ، اسمه « كمال » وكان بحكم وجوده والوافدة فى بيت واحد ، لابد أن تتلاقى أنظارهما ولو لماماً ، أما كمال فربما ابتسم لها ابتسامة تلطف وأدب ومجاملة ، وأما الوافدة فربما كانت تتأمل ذلك الفتى من خصاص الباب ومن وراء الحجاب ، وربما أعجبها وربما وجدت فيه ضالتها ، وربما عمل عمله داخل قلبها دون علم منه أو دراية ، وسواء كان هذا أم ذاك ، وسواء صدق حدسنا أم لم يصدق فقد عزمت الوافدة أن تقوم بعمل حاسم للوصول إلى هذا الشاب ، وبدأت ترسم الخطة وتعمل على هذا المشروع لدفعه إلى حيز الوجود .

لقد أبدت الوافدة رغبتها بتزويج أختها الجنية « مليكة » من هذا الشاب ، وأسرّت بذلك لوالدته وأبيه وكانا مأخوذين فى مقام الوافدة ، مسحورين فى ولايتها ، فما لبثا أن رحبا بهذه الفكرة وباركا هذا المشروع وسارعا إلى ولدهما « كمال » يزفان إليه رغبة الوافدة ويحملانه على الموافقة على هذا الزواج .. ودار بين كمال وأم كمال هذا الحديث :

الوالدة : ما بالك يا ولدى لا تفكر بما يفكر به أترابك ، ولا تهتم بما يهتم به الشباب ؟؟ .

كمال : ماذا تريدين منى وأنا لا أزال فى أول الشباب .

الوالدة : إننى أرغب أن أراك زوجاً فى حياتى يا كمال وأن أرى لك بيتاً

وأولاداً مثل باقى الناس .

كمال : وهل فكرت لى بعروس قبل هذا الحديث يا أماه ؟ .

الوالدة : نعم فكرت لك بالعروس ولا كل العرايس .. .

كمال : ومن هى بالله عليك يا أماه ؟؟ .

الوالدة : إنهـا أخت الوافـدة إنهـا بنت الملك الأبيض ملك المؤمنين من الجان، وقد أخبرتنا الوافدة أن أختها تحبك وأنك نزلت من نفسها منزلة مكينة ، ولذلك فإنها ترغب الزواج منك .

كمال : بنت ملك الجان ؟ وكيف لى بالوصول إليها ؟ .

الوالدة : أنت وافق ، والبـاقى علي وعلى الوافـدة ، بارك الله فيـهـا وقـدس سرها ، وراح كـمـال يحلم بذلك الزواج ، ومـا سيكون من شأنه ، وقد سمع الكثير عن مليكة ومـا لهـا من الصـفـات الجـمـيلة والأخـلاق الحسنة النبيلة والأيادى البيضاء على أهل القرية .

وافق كـمـال على هذا الزواج وطارت الوالدة تزف خبر الموافقة إلى « أبى كـمـال » ثم أسرعا لنقل الموافقة إلى الوافدة لتقوم هى عنهـمـا بتتميم مراسم الخطبة وشؤون الزواج ... .

وأعلن رسمياً وأمام جميع المريدات من نساء البلدة عن خطبة كـمـال إلى مليكة بنت ملك الجان أخت الوافدة ، ودعت الوافدة جميع مريداتها من نساء البلدة وأقامت خيمة من القماش الأبيض فى فناء الدار ، ولما حضرن أخبرتهن الوافدة أنها عقدت عقد أختهـا مليكة على كـمـال ، وأنهن فى هذه المناسبة سيقـمن حضرة فى هذه الليلة ، حيث يطلق البخور ، ويكثر الإنشاد ويطيب الذكر ، وكـان اجتـمـاع ولا كـغيره من الاجتـمـاعات ، فبدأت النسوة بقرع

الدفوف ، والتهليل والتكبير ، وارتفعت الأصوات ، واشتد قرع الدفوف وخرجت النسوة عن الطور المألوف ، وصاحت الوافدة قدوس قدوس حضرت أختى ، حضرت أختى وغيرت صوتها وأخذت تتكلم بصوت عريض فهاجت النسوة وماجت واشتد الخشوع وجرت الدموع ، وكلهن يهدرن بصوت واحد : الله الله ... وفى أثناء ذلك نادت الوافدة أم كمال فأقبلت هذه بابنها وأدخلته سرادق الوافدة فاستقبلته هذه وأخبرته أن أختها قد حلّت بها وأنها ستكون الواسطة بينه وبنيها ، لأن الجان لا يظهرون عى الإنس وأنها الآن ليست الوافدة وإنما هى مليكة بنت ملك الجان ، ودخل كمال على الوافدة والدفوف تعزف والنسوة تهتف واستقبلته الوافدة بالأحضان لتوصله إلى حضن أختها بنت ملك الجان وبنى كمال بزوجته الجنية ولكن عن طريق الوافدة وبواسطتها ، ومنذ تلك الليلة والأوراد تقام ، والحضرة تنعقد ، والأذكار تهدر فى منزل « أبى كمال » إلى أن تحضر أُخت الوافدة ، وتلتقى بزوجها كمال لقاء الزوج والزوجة ، والنسوة فى أورادهن خارج الصيوان فإذا قضت الوافدة الجنية لبانتها ، وذاقت من كمال عسالته وذاق منها عسالتها أذنت للنسوة بالانصراف وبقيت مع كمال بقية ليلها ... .

كثيرة هى الأمور التى يستطيع الإنسان أن يخفى آثارها ويطمس معالمها ويدفنها فى ضميره إلى الأبد ، أما الزواج فإنه غالباً ما يعلن عن نفسه شاء الإنسان أم أبى ، فقد تظهر آثاره إن عاجلاً أم آجلاً ...

لقد شعرت الوافدة أن البذرة توضعت فى أحشائها ، وتمكنت من رحمها ، وأنه لابد لآثار الزواج أن تظهر واضحة فى تكور بطنها ، وفيما يعقب ذلك من أثقال الحمل ، وآلام الوضع وقدوم الجنين ، ولعلها رغبت فى

احتضان هذه البذرة وراحت تتعهدها أملاً باحتفاظها بزوجها ، وتوثيق الرابطة الزوجية بينهما ... .

وقد أخذت العيون تتقحمها ، والظنون تحوم حولها ، والألسنة الحداد تتناولها وتنهش من لحمها ، كان أول من لحظ عليها هذا التغير كمال وأمه وأبوه ، وقد ترددوا كثيراً قبل أن يستطلعوا أمرها ويكشفوا الغامض من سرها ، وعندما رأت هذه الأسرة أن الأعين راحت تتخطفها ، والألسن أخذت تتناولها دفعوا بولدهم كمال يستوضح أمره ويسألها عن حالها ويستفهم منها عن سبب ارتفاع بطنها .

لم يكن كمال يتوقع ما ستفاجئه به هذه الوافدة الماكرة عندما دار بينهما هذا الجوار :

كمال : رأيت الناس يشيرون إليك بالأصابع ، فخفت أن تكونى تعرضت لسوء أو تعرض لك أحد بسوء فأحببت أن أطمئن عليك .

الوافدة : أأنت الذى تسأل هذا السؤال ؟ ألست زوجى ؟؟ .

كمال : أنا زوجك ؟ .

الوافدة : نعم أنت زوجى ، وإلا فما الذى يأتى بك كل ليلة لسريرى ..؟.

كمال : عجيب أأكون زوجك وزوج أختك فى آن واحد ؟؟ .

الوافدة : أختى ؟ ومن قال لك أن لي أختاً ؟؟ .

كمال : ألم تقولى لوالدتى ولجميع النساء اللواتى يفدن إليك أن لك أختاً من الجن هى مليكة بنت الملك الأبيض من ملوك الجان ؟ .

الوافدة : حقيقة أنك غبى ، كنت أظن أنك شريكى فى اللعبة ، وأننا

نسجنا خيوطها سوية ، وأحكمنا خطتها معاً وأننا لعبنا بعقول الآخرين فزعمنا أنك تزوجت أختى ، وفى الحقيقة أنك تزوجتنى أنا وحدى ... .

كمال : أنا .. أنا .. أنا تزوجتك يا ماكرة ، يا قبيحة ، يا كرنيبة ، ومسك « بخوانيقها » فصاحت واستغاثت فهرع من فى الدار ، وأقبل الجيران فرأوهما يتشاتمان : هو يقول لها يا خادعة يا ماكرة ، وهى تقول له : يا أهبل يا غبى ، هو يقول لها : أنا تزوجت أختك مليكة ، وهى تقول له بل تزوجتنى أنا ، وأنا حامل منك ... .

والناس يتكاثرون من حولهما والوالدان صامتان مبهوتان لا يدريان ماذا يجرى ، والآخرون يتغامزون ويتهامسون ، ويناجى بضعهم بعضاً بنجوى كلها إثم وتجريح وفضيحة .

وبدأ الناس ينصرفون وهم يتلاومون بعضهم يزم شفته والآخر يهز برأسه مشيراً نحوهما الله أعلم .. ولا تزال الأيدى مشتبكة والألسن مسلولة والشتائم متبادلة بين كمال والوافدة .

ولم يمض على ذلك يوم أو بعض يوم حتى وضعت السلطة يدها على هذا الوكر الأثيم ، واقتيد كمال والوافدة إلى السجن بتهمة الشعوذة ، وابتزاز المال وتعاطى الفاحشة فى السر والعلن ... .

ولا نزال إلى اليوم نسأل كمالاً عن تلك الفترة من تاريخ حياته فيحزن قلبه ، ويكفهر وجهه ، وينعقد لسانه ولا ينبس عن تلك الفترة من زواجه الوافدة أو الجنية ببنت شفه ... قلت لمحدثى لعلك تضع قصة وتدير الحديث على لسان أطالها – فابتسم ابتسامه عريضة وقال : لا تذهب بعيداً فى ظنك فإنى أنا كمال ....

[٣٢] الجواب ما تراه لا ما تسمعه

لما نقضت الروم الصلح الذى كان بينهم وبين المسلمين ، وكان الذى عقده هارون الرشيد مع رنا ملكة الروم الملقبة أغسطة ، وذلك أن الروم عزلوها واختاروا عليها النقفور وجعلوه ملكاً عليهم وكان شجاعاً متهوراً فكتب إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ! فإذا قرأت كتابى هذا فأردد إلىّ ما حملته إليك من الأموال وافتد لنفسك به !! وإلا فالسيف بيننا وبينك !! فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ولا يستطيع مخاطبته ، ثم كتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ... قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه ... والسلام ، ثم قام من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق فطلب نقفور منه الموادعة والصلح على خراج يؤديه إليه فى كل سنة .

فأجابه الرشيد إلى ذلك ، فلما عاد الرشيد إلى « الرقة » بسورية نقض نقفور ، فلما علم الرشيد قال : أوقد فعلها ! فكر راجعاً حتى أناخ بفنائه ونال مراده وأخذ منه الجزية أضعافاً مضاعفة جزاء غدره ، قال المؤرخون : الضربات التى وجهها الرشيد للروم لم تستفق منها عشرات السنين .

[٣٣] خادم أم خادمة ؟! (١)

بعد انتظار دام زماناً قدمت الخادمة من الفلبين .. غمر الفرحة جميع أفراد العائلة الثرية .. رحب بها الجميع وبدأت أعمالها بعدما تعرفت على جميع أفراد الأسرة ، وجالت فى البيت تتأمل غرفه وأروقته .. .

تحدثت ربة البيت مع أخواتها وجاراتها وصديقاتها عبر الهاتف لتزف لهن البشرى بقدوم الخادمة الفلبينية الجميلة ، تفانت الخادمة فى عملها ، وقدمت كل جهدها ، ونالت إعجاب الجميع .

شعرت ربة المنزل براحة عندما كانت الخادمة تمسك بيدها ، أو تحسس رأسها أثناء المرض ، أو تمشط لها شعرها .. .

اكتشفت فيها مهارة جديدة .. علمت أنها تجيد التدليك .. طلبت منها أن تدلك لها جسدها .. لم تمانع الخادمة .. بل رحبت بذلك أيما ترحيب .

كانت تشعر ربة المنزل بالسرور أثناء التدليك .. ذكرت ذلك لزوجها ومدحت قدرة الخادمة وأسلوبها العجيب فى التدليك .. طلبت من زوجها أن يجرب .. نعم طلبت منه ذلك دون أن تشعر بالحرج لكون الخادمة أنثى .. ووافق الزوج بعد تردد .. وتكرر ذلك مراراً .. وصار يشعر بلذة أثناء التدليك .. وجعل الشيطان يقربه أكثر فأكثر من الخادمة .. أخذ يلاطفها ويلاعبها ويتودد إليها .. ثم بدأت الوساوس تشتد أكثر فأكثر .. شعر بهاجس يدعوه لفعل الفاحشة أخذ يتحين الفرصة .. .

---

(١) حوادث واقعية للحميدى .

وفي يوم من الأيام وبعدما أوصل عائلته لبيت أحد أقربائه ، عاد إلى البيت مسرعاً فرحاً بما سيفعل من المنكر العظيم .. ودخل المنزل وقد أعمى الشيطان قلبه .. وهرع نحو الخادمة وطلب منها أن تقوم بتدليكه .. لم تمانع الخادمة .. اقترب منها وطلب أن تمكنه من نفسها .. رفضت بشدة .. حاولت الهرب .. أمسك بها .. دفعته وحاولت التفلت من بين يديه .. جعل يجردها من ملابسها نظر إليها ...

يا للهول .. ماذا أرى ؟!! .

كانت المفاجأة مذهلة .. إنها رجلٌ وليست امرأة .. وامصيبتاه .. ماذا أفعل ؟ ، شعر الرجل بخجله من نفسه .. تذكر كيف كان هذا الرجل يدلك جسد زوجته .. مجنون أنا .. كيف قبلت بهذا ؟؟ .

تصبب العرق من جبينه .. ضاقت عليه الأرض بما رحبت .. لابد أن أتخلص منه .. وسارع إلى مكتب لتسفير الخادمة التي تبين أنها رجل ، وسلمه الخادمة وطلب منه أن يقوم بتسفيرها بأسرع وقت ممكن .

تمتم بكلمات ... ترى كم رجل في بيوت المسلمين بزي امرأة ؟!!! .

[٣٤] أمين

قال أحد التجار :

قصدت الحج فى بعض الأعوام ، وكانت تجارتى عظيمة ، وأموالى كثيرة، وكان فى وسطي هِمْيَانٌ [١] فيه دنانير وجواهر قيّمةٌ ، وكان الهميان من ديباج أسود .

فلما كنت ببعض الطريق نزلت لأقضى بعض شأنى ، فانحل الهُميان من وسطى ، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرت عن الموضع فراسخ ، ولكن لم يكن يُوتِّر فى قلبى لِمَا كنت أحتويه من غنى ، واستخلفت ذلك المال عند الله ، إذ كنت فى طريقى إليه تعالى .

ولما قضيت حجتى وعدت وتتابعت المِحَنُ عليَّ حتى لم أملك شيئاً ! فهربت على وجهى من بلدى ، ولما كان بعد سنين من فقرى ، أفضيت إلى مكان وزوجى معي ، وما أملك فى تلك الليلة إلا دانقاً ونصفاً ، وكانت الليلة مطيرةً ، فأويت فى بعض القرى إلى خان خراب ، فجاء زوجى المَخَاضُ فتحيرت ثم ولدَتْ ، فقالت : يا هذا ، الساعة تخرج روحى ، فاتخذ لى شيئاً أتقوى به فخرجت أخبط فى الظُّلْمة والمطر حتى جئت إلى بدّال فوقفت عليه ، فكلمنى بعد جهد ، فشرحت له حالي ، فرحمنى وأعطانى بتلك القطع حُلْبَةً وزيتاً وأغلاهما ، وأعارنى إناء جعلت ذلك فيه ، وجئت أريد الموضع ، فلما مشيت بعيداً وقُربت من الخان زَلَقَتْ رجلي ، وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه ،

---

(١) الهِمْيَانُ : كيس تُجعل فيه النفقة . ويُشَدُّ على الوسَط .

فورد على قلبى أمر عظيم ما ورد عليَّ مثله قط ! فأقبلت أبكى وأصيح ، وإذا برجل قد أخرج رأسه من شباك فى داره ، وقال : ويلك ! مالك تبكى ؟ ما تدعنا ننام .

فشرحت له القصة فقال : يا هذا ، البكاء كلُّه بسبب دانق ونصف ! .

قال : فداخلنى من الغم أعظمُ من الغم الأول فقلت : يا هذا والله ما عندى شىء لما ذهب منى ، ولكن بكائى رحمة لزوجى ولنفسى ، فإن امرأتى تموت الآن جُوعاً ، ووالله لقد حججت فى سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال شيئاً كثيراً ، فذهب منى هِميان فيه دنانير وجواهر تساوى ثلاثة آلاف دينار فما فكرت فيه ، وأنت ترانى الساعة أبكى بسبب دانق ونصف ، فاسأل الله السلامة ، ولا تعايرنى فتُبتَلى بمثل بلوايَ .

قال : فقال لى : يالله يا رجل ، ما كانت صفة هميانك ؟ فأقبلت أبكى وقلت : ما ينفعنى ما خاطبتنى به ، أو ما تراه من جُهدى وقيامي فى المطر حتى تستهزئ بى أيضاً ! وما ينفعنى وينفعك من همياني الذى ضاع منذ كذا وكذا ؟ .

قال : ومشَيْتُ فإذا بالرجل قد خرج وهو يصيح بى : خذ يا هذا : فظننته يتصدق عليّ ، فجئت وقلت له : أى شىء تريد ؟ فقال لى : صِفْ همیانك ، وقبض عليّ ، فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له ، فوصفته فقال لى : ادخل ، فدخلت فقال : أين امرأتك ؟ قلت : فى الخان ، فأرسل غلمانه فجاءوا بها ، وأُدخلت إلى حُرمه ، فأصلحوا من شأنها وأطعموها كل ما تحتاج إليه ، وجاءونى بجُبَّة وقميص وعِمامة وسراويلَ وأُدْخِلْت الحمام ، وقال : أقم عندى أياماً فأقمت عشرة أيام ، كان يعطينى فى كل يوم عشرة دنانير وأنا متحير

فى عِظم بِرِّه بعد شدة جفائه ! .

فلما كان بعد ذلك قال لى : فى أيِّ شيء تتصرف ؟ قلت :كنت تاجراً ، قال : فلى غلات وأنا أعطيك رأس ما تتجر فيه وتشرَكُنى ، فقلت : أفعل . فاخرج لى مائة دينار ، فقال : خذها واتجر فيها هاهنا . فقلت : هذا معاش قد أغناني به الله يجب أن ألزمه فلَزِمْتُهُ .

فقال : اجلس ، فجلست فاخرج لى همياني بعينه وقال : أتعرف هذا ؟ فحين رأيته شهقْتُ وأغمى عليَّ فما أفقت إلا بعد ساعة ! ثم قلت له : يا هذا ، أمَلَكٌ أنت أم نبي ! فقال : أنا أحفَظُه منذ كذا وكذا سنة ، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته ، وطالبتك بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت همياناك ، فخفت أن يغشى عليك ، فأعطيتك الدنانير التى أوهمتك أنها هِبَةٌ ، وإنما أعطيتكها من همياناك ، فخذ همياناك واجعلنى فى حِلٍّ ، فشكرته ودعوت له .

وأخذت الهميان ورجعت إلى بلدى ، فبعت الجواهر وضممت ثمنه إلى ما معى واتجرت ، فما مضت إلا سنوات حتى صِرْت صاحب عشرة آلاف دينار وصلُحت حالى .

[٣٥] رزق الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دخل رجل على أهله فلما رأى مابهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته ما لقي قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً قال : فرجع الزوج . قال : أصبتم بعدى شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، فرفعتها إلى الرحى ثم قامت ... فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « **أما إنها لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة** » .

[رواه أحمد بإسناد صحيح] .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : « أصاب رجلاً حاجة ، فخرج إلى البرية ، فقالت امرأته : اللهم ارزقنا ما نعتجن به ، وما نختبز ، فقالت امرأته : اللهم ارزقنا عجيناً ، وفى التنور « الفرن » الشواء ، والرحى تطحن فقال : من أين هذا ؟ قالت : من رزق الله ، فكنس ما حول الرحى ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو تركها لدارت أو طحنت إلى يوم القيامة** » .

[أورده الشيخ الألبانى فى السلسلة الصحيحة] .

[٣٦] توبة امرأة من السحر [1]

عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت :

قدمَت امرأة من « دومة الجندل » [2] تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته ، حداثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، قالت عائشة لعروة : يا ابن أختي ! فرأيتها تبكى حتى إنى لأرحمها ؛ تقول : إنى أخاف أن أكون قد هلكتُ ، كان لى زوج فغاب عنى ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلت ما آمرك به يأتك ، فلما أتانا الليل جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر ، ولم يكن كشيء حتى وقفنا بـ « بابل » فإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ما جاء بك ؟ فقالت : أتعلّم السِّحر ، فقالا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفرى وارجعى ، فأبيت وقلتُ : لا . قالا : فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، فذهبت ففزعت فلم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : لم أر شيئاً ، فقالا : لم تفعلى ! ارجعى إلى بلدك ولا تكفرى ، فأبيت ، فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، ثم إنى ذهبت فاقشعرّ جلدى وخفت ، ثم رجعت إليهما ، فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ فقلت : لم أر شيئاً ، فقالا : كذبت ، لم تفعلى ، فارجعى إلى بلدك ولا تكفرى ، فإنك على رأس أمرك فذهبت فبلت فيه ؛ فرأيت فارساً متقنعاً بحديد

---

(١) التائبون إلى الله ، للحازمى .

(٢) دومة الجندل : بضم الدال وفتحها ، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين وهى على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل ، أى الحجارة .

خرج منى فذهب إلى السماء وغاب عنى حتى ما أراه ، وجئتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ قلت : رأيتُ فارساً متقنعاً بحديد خرج منى فذهب فى السماء حتى ما أراه ، فقالا : صدقت ! ذلك إيمانك خرج منك ؛ اذهبى . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئاً ، وما قالا لى شيئاً ، فقالت : بلى ! لن تريدى شيئاً إلا كان ، خذى هذا القمح فابذرى ، فبذرت ، فقلت : أطلعى ، فأطلعت ، فقلت : الحقي ، فلحقت ، ثم قلت : افركى ، ففركت ، فقلت : ابيسى ، فيبست ، ثم قلت : اطحنى ، فطحنت ، ثم قلت : اخبزى فخبزت ، فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سُقط فى يدى وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً ، فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حداثة وفاة رسول الله ﷺ ، وهم متوافرون ، فما دروا ما يقولون لها ، وكلهم هاب وخاف أن يُفتيها بما لا يعلمه .

[٣٧] مأساة مروعة

[الحمو الموت] (١)

كان يكد ويشقى الليل مع النهار لتلك المرأة التى اقترن بها ، وزيادة على ذلك التعب الصباحى وبعد أن كثر أولاده ، اضطر للعمل على سيارة أجرة يزيد بها من دخله ، وفى أحد الأيام وهو فى كده وتعبه فى سيارة الأجرة وقريباً من المغرب ، وإذا بامرأة من الجنسية الأسيوية تستوقفه لإيصالها إلى المستشفى فلما علم موظفو المستشفى أن حالتها صعبة جداً أخذوا منه رقم هاتفه ، وبعد ساعات اتصلوا به يطلبون حضوره حالاً ، فلما سألهم عن السبب ، قالوا : إن زوجته قد ولدت طفلاً ، فرد عليهم بغضب : زوجتى معى الآن فى البيت وليس عندى غيرها ، قالوا : المهم حضورك فوراً ، فلما وصل إلى إدارة المستشفى قال : ما هذه النكتة البايخة ، التى أطلقتموها علىّ ؟ الحمد لله أن زوجتى لم تسمعكم ولو سمعتكم لقامت قيامتى فى البيت ، فقالوا : لم نطلق نكتة حتى تصبح بايخة ، فالمرأة التى أوصلتها لما سألناها من زوجك أبو هذا الطفل ؟ قالت : صاحب السيارة الأجرة التى أوصلنى ، فقال : أعوذ بالله من غضب الله ، ما هذا الافتراء ؟ صحيح أن « المصائب تأتيك وأنت نائم » فأراد أن يصحح هذا الاتهام ويخرج منه فطلب منهم أخذ عينة من دمه ودم الطفل ، فلما قاموا بذلك وأثناء انتظاره للنتيجة ويده على قلبه من ربه أن يخرجه من هذه

---

(١) قال ﷺ : « **إياكم والدخول على النساء** ، فقال رجل يا رسول الله : **أفرأيت الحمو** ، **قال : الحمو الموت** » . الحمو : أخو الزوج أو أقاربه .

الورطة ، وإذا بالطبيب يقول له : نأسف على أذيتك وانشغالك معنا ، فلا دمك يوافق دم الطفل ولا أنت تستطيع الإنجاب لأنك عقيم !! .

فقال الرجل : وهذه نكتة أبوخ من سابقتها ، فأنا متزوج من سنين وعندى من الأولاد ستة وتقولون إنى عقيم !! ، افحصوا مرة أخرى وشدد عليهم فى ذلك ، فأعادوا التحاليل وجاءه الطبيب مؤكداً على نتيجة الفحص الأول قائلاً : يا أخى أما قلت لك إنك عقيم لا تنجب ؟؟!! .

فخرج الرجل من مصيبة ودخل فى أخرى .. ولما قام بالتحقيق والمتابعة إذ بأخيه يعاشر زوجته طيلة تلك السنين ، وهو مؤتمن عليه فى ماله وأهله ، فاعترف الاثنان بجريمتهما البشعة المأساوية الشنيعة ، فكانت المرأة الأسيوية سبباً فى ذلك ، فلم يستطع الثلاثة الزوج والزوجة والأخ أن يفلتوا مما قدره الله وكتبه عليهم ، وصدق الله القائل : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [١] ، [٢] .

---

(١) بتصرف من مجلة النور الكويتية « عدد ١٥٩ » .

(٢) سورة إبراهيم الآية « ٤٢ » .

[٣٨] انتقام الجبار

توفى زوجها وترك لها ٧ أولاد ، فترك أكبرهم دراسته لكى يعول والدته وأخوته وعمل فى حانوت أبيه ... وبعد ثلاث سنوات دُعى الولد الكبير إلى الخدمة الإلزامية فبرزت عند ذلك مشكلة أخرى وهى : من ينفق على هذه العائلة ، هل يضحى الابن الثانى بالدراسة كما ضحى أخوه ... كان هناك حل واحد فقط لإعفاء الأخ الأكبر من الخدمة الإلزامية ، وهو دفع البدل النقدى ، واجتمعت العائلة واستقر رأيهم على رهن البيت الذى يسكنون فيه ، وبالفعل رُهن البيت بأربع مائة دينار ، وبعد إجراء عملية الرهن انطلقت الأم العجوز إلى محطة تجمع سيارات الأجرة لكى تسافر إلى المدينة التى تبعد عنهم بأكثر من مئتين وأربعين كيلو متراً لدفع البدل النقدى عن ولدها – قبل انقضاء مدته بيوم واحد – وعند المحطة لم يكن هناك مسافرون كثيرون وانتظرت الأم وانتظرت قرابة الساعة ، فلم يأت أحد وأشرفت الشمس على الغروب ، فكان لابد لها أن تستأجر سيارة خاصة لتوصيلها قبل أن ينتهى مدة سداد البدل ، واستأجرت السيارة ثم انطلقت بها بعد أن قبض السائق أجرته كاملة ، وكانت الطريق بين المدينتين تمر بين جبال ووديان وبعد ابتعاد السيارة عن المناطق المأهولة ، واقترابها من المناطق الخالية ، تحدث سائق السيارة مع العجوز ... ولعله سألها عن سر استعجالها فى ذلك ، فقصت عليه قصة بيع البيت وقصة دفع البدل النقدى عن ولدها ، فلعب الشيطان بعقل الرجل وبعد قليل أوقف السيارة على الجانب الأيمن بقرب وادٍ سحيق .. ونزل وفتح الباب على المرأة وسحبها من السيارة سحباً ، ولم تستطع المسكينة أن تقاوم ، وأخرج المجرم سكيناً وأوسعها

طعناً ثم أخذ ما معها من مال ، وسقطت المرأة متضرجة بدمائها وهى تئن وتنزف الدماء غزيرة ، وليس بقربها مخلوق فى هذا المكان الموحش المنقطع ، وركب الرجل سيارته ووصل إلى المدينة وعاد محملاً بالركاب ، وعندما اقترب من مسرح جريمته أوقف السيارة وادعى أنه سيقضى حاجته ، ولم يكن الركاب يعلمون ما اقترفت يداه .. لقد أراد المجرم أن يتأكد من موت العجوز لأنه تركها وهى تئن وتعالج السكرات ... ونظر الرجل إلى ضحيته فوجدها ما زالت تئن وهى على قيد الحياة لم تمت بعد ، وإذا بالظالم ينحنى ويأخذ حجراً عظيماً ويرفعه إلى أعلى صائحاً أيتها الملعونة ألا زلت على قيد الحياة حتى الآن ... وجمدت المرأة ... وكأنها تنظر إلى أجلها وفى تلك اللحظة انطلقت من السائق صرخة مدوية هزت الوادى ... فقد كان تحت هذه الصخرة ثعبان عظيم لدغ هذا المجرم قبل أن يجهز على هذه المسكينة ، ونزل الركاب من السيارة على هذه الصرخة المدوية ... فإذا بهم يشاهدون السائق جثة هامدة ، وامرأة تئن وتتمتم بكلام غير مفهوم ... وحُمل السائق والمرأة وجاءت الشرطة وحُملت المرأة إلى المستشفى وبين تأوهاتها طلبت ولدها ثم راحت فى غيبوبة طويلة ... فظن الممرضون أنها تعانى من سكرات الموت ... وفى اليوم التالى أفاقت المرأة من غيبوبتها ... وحققت الشرطة فى الأمر وأخذوا الأموال من المجرم وأعادوها للمرأة ثم قالت لولدها وهى فى شبه غيبوبة ، ادفع البدل سريعاً ... وأغمضت عينيها وذهبت فى غيبوبة أخرى ... ولكنها لم تمت .. ويوماً بعد يوم تحسنت حالتها الصحية والمادية وفرج الله عنها ... وها هو راوى القصة اللواء الركن « محمود شيت خطاب » يذهب إلى دارها الجديدة العامرة ويسألها ... مالذى كنت تقولينه وأنت ملقاه فى الوادى ؟ فترد العجوز المؤمنة كنت أقول : « يا جبار

السماوات والأرض أنت أعلم بحالى فهيئ لى بقدرتك القادرة أسباب دفع البدل النقدى عن ولدى ليعود إلى أهله ويعيلهم ... يارب » .

يالها من مناجاة ... يا لها من تضحية ... لم تفكر فى غزارة الدم الذى يسيل منها ولم تفكر أنها لربما ترحل عن الدنيا بعد ثوان معدودة ولكنها فكرت فى كيفية إعالة أولادها ... وبعد المناجاة جاء الفرج من رب الأرض والسماوات ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** ﴾ [١] ، إنه الله جل جلاله [٢] .

(١) سورة النمل الآية « ٦٢ » .

(٢) عذالة السماء لمحمود شيت خطاب « بتصرف واختصار » .

[٣٩] من أطيع ... ؟

انتهى اليوم الدراسى ، وعادت الفتاة الصغيرة إلى منزلها وقد غشى وجهها سحابة من الحزن ، ولمحت الأم الحنون أن هناك أمراً يعتمل في نفس صغيرتها ولم تحتج إلى جهد لتفصح الفتاة وتقول الفتاة : أماه ! إن مُدرستى هددتنى بالطرد من المدرسة لأجل هذه الملابس الطويلة التى ألبسها ! .

الأم : ولكنها الملابس التى يريدها الله ! .

الفتاة : نعم يا أماه ، ولكن المُدرسة لا تريدها ! .

الأم : حسناً يا ابنتى ، المُدرسة لا تريد ، والله يريد ... فمن تطيعين ؟ ، أتطعين الله الذى أوجدك وصورك وأنعم عليك ؟ أم مخلوقةَ لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً .

الفتاة : بل أطيع الله .

الأم : أحسنت يا ابنتى وأصبت .

وفى اليوم التالى انفجرت المُدرسة غاضبة مؤنبة تلك الفتاة التى تتحدى إرادتها ولا تستجيب لطلبها ، ولا تخاف من تهديدها ووعيدها ، ولما زادت فى التبكيت وثقل الأمر على الصغيرة ولم تستطع أن تواجه ذلك السيل من المُدرسة وتلك النظرات من زميلاتها ، عند ذلك انخرطت فى بكاء شديد ، ذهلت له المُدرسة وجعلها تتوقف وتهدأ ، ثم قالت الفتاة : والله لا أدرى من أطيع ؟ أنت أم هو ؟ .

المُدرسة : ومن هو ؟ .

الفتاة : الله ، أأطيعك أنت فألبس ما تريدين وأغضبه هو ؟ ، أم أطيعه وأعصيك ؟ ، سأطيعه سبحانه وليكن ما يكون ... .

وسكتت المُدرسة وفي اليوم التالى دعت المُدرسة أم الفتاة لتقول لها المُدرسة : لقد وعظتنى ابنتك أعظم موعظة سمعتها فى حياتى [١] .

(١) محالس النساء .